إحساس عالمي بالمكان

من كتاب "الفضاء، المكان، والجنس "(1994)

دورين ماسي

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

كيف يُمكننا فهم الأبعاد الثقافية للعولمة من منظور جغرافي ؟ في كتاب "إحساس عالمي بالمكان" ، تُشير دورين ماسي إلى وجود جانبين على الأقل لهذه المسألة . من ناحية ، قد يبدو أن سرعة تدفق الأشخاص والأفكار والسلع تُقلل من عائق المكان ، وتُقلل من أهميته في عالم اليوم . من ناحية أخرى ، تُشير ماسي إلى أن العولمة لا تُعاش من قِبل جميع الناس في كل مكان بالطريقة نفسها . بل يوجد ما تُسميه ماسي **"هندسة القوة المكانية"** . بعض الناس هم بالفعل الطرف المُبادر للحركة التي تُميز العولمة : إرسال الفاكسات ، والسفر بالطائرات ، والتسوق عبر الإنترنت . لكن آخرين ليسوا كذلك . اللاجئون ، على سبيل المثال ، ينتقلون ، لكن ليس لديهم الكثير من الخيارات في هذا الشأن . وما يزال آخرون لا ينتقلون على الإطلاق ، لكنهم عالقون في مكانهم بسبب انخفاض الأجور ، الوظائف ، ونقص الوصول إلى وسائل النقل، وقوى أكبر مثل إعادة الهيكلة الاقتصادية التي تُهملهم .

تستكشف ماسي موضوعًا مشتركًا بين العديد من المقالات المدرجة في هذا الجزء ، ألا وهو كيفية وضع تصور **للتغيرات التي أحدثتها العولمة** ، والتعامل معها بفعالية . في مقال "إحساس عالمي بالمكان" ، تطرح ماسي مفهومًا تقدميًا بالإحساس بالمكان . فبدلًا من النظر إلى الأماكن ككيانات متجانسة يجب الحفاظ على نقائها في مواجهة العولمة ، تقترح ماسي أن ننظر إليها كمجموعات من العلاقات الاجتماعية المرتبطة بشبكات تتجاوز الفضاء والنطاق . **في ظل العولمة ، أصبحت العلاقات الاجتماعية أكثر اتساعًا مكانيًا من ذي قبل** . وهكذا ، أصبحنا ، ولطالما كنا ، مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بأشخاص في أماكن أخرى ، وبعمليات على نطاقات أوسع من النطاق المحلي .

في الواقع ، غالبًا ما نكون أكثر ارتباطًا بأشخاص في أماكن بعيدة جغرافيًا من ارتباطنا بأشخاص يعيشون في الشارع المجاور لنا . سواءٌ أكانت العولمة علامةً على عصر ما بعد الحداثة ، عصرٌ يتجاوز الحداثة ، حيث أدّت سرعة التدفقات إلى تجربةٍ مختلفةٍ نوعيًا للوجود في العالم ، أم لا ، فهي مسألةٌ محلّ نقاشٍ بين الجغرافيين . يُعدّ كتاب ديفيد هارفي "حالة ما بعد الحداثة : بحثٌ في أبعاد التغيير الثقافي" (1989) وكتاب إدوارد سوجا "جغرافيات ما بعد الحداثة : إعادة تأكيد المكان في النظرية الاجتماعية النقدية" (1989) عملين مهمين في هذا الموضوع من قِبَل الجغرافيين . على الرغم من أن هارفي يُجادل بأننا نعيش في عالمٍ حديثٍ متأخر، بينما يُشير سوجا إلى أننا انتقلنا إلى ما بعد الحداثة ، إلا أن دورين ماسي تناولت كليهما بشكلٍ نقديٍّ من منظورٍ نسوي ؛ ينظر تحديدًا مقالها بعنوان "التمييز الجنسي المرن" ، في مجلة البيئة والتخطيط ، المجلد 9: المجتمع والمكان، المجلد 1 (1991): 31- 57.

تشتهر دورين ماسي بمناقشتها الثاقبة للقضايا الكبرى مثل العولمة ، ونظريات الفضاء والمكان ، والجنس وإعادة الهيكلة الاقتصادية ، وهي واحدة من أكثر الجغرافيين البشريين الأحياء قراءةً في العالم ، العالم الناطق باللغة الإنجليزية . نُشر أحدث كتاب لها ، "من أجل الفضاء" ، عام ٢٠٠٥. وفي عام ١٩٩٣،

نُشر ملخص لأعمالها التي امتدت لعقود تحت عنوان "الفضاء والمكان والجنس" . دورين ماسي أستاذة جغرافيا في الجامعة المفتوحة .

هذا عصر - كما يُقال غالبًا - تتسارع فيه الأمور وتنتشر. **يمر رأس المال بمرحلة جديدة من التدويل ، لا سيما في جوانبه المالية** . يسافر المزيد من الناس بوتيرة أكبر ولمسافات أطول . ربما صُنعت ملابسك في مجموعة من البلدان - من أمريكا اللاتينية إلى جنوب شرق آسيا . يتكون عشاءك من طعام يُشحن من جميع أنحاء العالم . وإذا كان لديك شاشة في مكتبك ، فبدلاً من فتح رسالة استغرقت بضعة أيام لتشق طريقها عبر البلاد ، تُقاطعك الآن رسائل البريد الإلكتروني .هذه النظرة للعصر الحالي هي نظرة نجدها بكثرة في مجموعة واسعة من الكتب والمجلات .

يؤكد الكثير مما كُتب عن الفضاء والمكان وما بعد الحداثة على مرحلة جديدة فيما أسماه ماركس ذات مرة "فناء الفضاء بفعل الزمن" . يُقال إن هذه العملية ، أو - وهو ما يُشاع - يُؤكد أنها اكتسبت زخمًا جديدًا ، و وصلت إلى مرحلة جديدة . إنها ظاهرة تُسمى "**ضغط الزمان والمكان**" . ويتسم القبول العام بحدوث شيء من هذا القبيل بالاستخدام شبه الإلزامي في الأدبيات لمصطلحات وعبارات مثل "التسريع" ، و"القرية العالمية" ، و"تجاوز الحواجز المكانية" ، و"تعطيل الآفاق" ، وما إلى ذلك . ومن نتائج ذلك تزايد عدم اليقين بشأن ما نعنيه بـ"الأماكن" وكيفية ارتباطنا بها . فكيف يُمكننا ، في ظل كل هذه الحركة والتداخل ، أن نحافظ على أي شعور بمكان محلي وخصوصيته ؟ تُطرح فكرة (مثالية) عن عصر كانت فيه الأماكن (من المفترض) مأهولة بمجتمعات متماسكة ومتجانسة في مواجهة التشرذم والاضطراب الحاليين .

إلا أن هذا الموقف المُقابل مشكوك فيه بالطبع ؛ نادرًا ما كان "المكان" و"المجتمع" مترابطين . لكن التوق العرضي لمثل هذا التماسك يُعدّ مع ذلك علامة على التشرذم الجغرافي ، والاضطراب المكاني ، في عصرنا . وفي بعض الأحيان أيضًا ، كان جزءًا مما أدى إلى ردود فعل دفاعية ورجعية - أشكال معينة من القومية ، واستعادة عاطفية لـ"تراث" مُنقّى . وعداء صريح للوافدين الجدد و"الغرباء" . ومن آثار هذه الاستجابات أن المكان نفسه ، أي السعي وراء الشعور بالمكان ، أصبح يُنظر إليه من قِبل البعض على أنه رجعي بالضرورة . ولكن هل هذا صحيح بالضرورة ؟ **ألا يمكننا إعادة التفكير في شعورنا بالمكان** ؟ أليس من الممكن أن يكون الشعور بالمكان تقدميًا : ليس انغلاقًا على الذات ودفاعيًا ، بل انفتاحًا على الخارج ؟

الشعور بالمكان يتناسب مع عصر ضغط الزمان والمكان هذا ؟ بدايةً ، ثمة أسئلة يجب طرحها حول ضغط الزمان والمكان نفسه . من الذي يختبره ، وكيف ؟ هل نستفيد جميعًا ونعاني منه بالطريقة نفسها ؟ على سبيل المثال ، إلى أي مدى يُمثل الوصف الشائع حاليًا لضغط الزمان والمكان وجهة نظر غربية ، مستعمرة ؟ لا بد أن الشعور بالتشرد الذي يشعر به البعض عند رؤية شارع محلي كان معروفًا في السابق ، تصطف على جانبيه الآن سلسلة من الواردات الثقافية - مطعم البيتزا ، ومطعم الكباب ، وفرع البنك الشرق أوسطي - كان محسوسًا منذ قرون ، وإن كان من وجهة نظر مختلفة تمامًا ، من قِبل الشعوب المستعمرة في جميع أنحاء العالم وهم يشاهدون استيراد ، وربما حتى استخدام ، منتجات الاستعمار الأوروبي أولًا ، ربما البريطاني (من وسائل النقل الجديدة إلى أملاح الكبد ومسحوق الكاسترد) ، ثم الأمريكي لاحقًا ، حيث تعلموا تناول القمح بدلًا من الأرز أو الذرة ، وشرب الكوكاكولا ، تمامًا كما نجرب اليوم الإنتشلادا .

علاوة على ذلك... نحتاج أيضًا إلى التساؤل عن أسبابه : ما الذي يحدد درجات حركتنا ، والذي يؤثر على إحساسنا بالفضاء والمكان ؟ يشير ضغط الزمان والمكان إلى الحركة والتواصل عبر المكان ، وإلى الامتداد الجغرافي للعلاقات الاجتماعية ، وإلى تجربتنا مع كل هذا . التفسير الشائع هو أنه ناتجٌ بشكلٍ كبير عن أفعال رأس المال ، وعن تدويله المتزايد حاليًا . بناءً على هذا التفسير، **فإن الزمان والمكان والمال هي**

التي تُحرك العالم ، ونحن ندور حوله (أو لا ندور) . **الرأسمالية وتطوراتها هي التي تُحرك العالم** . يُقال إن عوامل مثل "العرق" و"الجنس" تُحدد فهمنا وتجربتنا للمكان . لكن هذا غير كافٍ بالتأكيد . فمن بين العوامل الأخرى العديدة التي تؤثر بوضوح على تلك التجربة ، هناك ، على سبيل المثال ، "العرق" و"الجنس" .

إن مدى قدرتنا على التنقل بين البلدان ، أو التجول في الشوارع ليلًا ، أو الخروج من الفنادق في المدن الأجنبية ، لا يتأثر فقط بـ"رأس المال" . فقد أظهرت دراسات استقصائية تلو الأخرى كيف أن قدرة المرأة على الحركة ، على سبيل المثال ، مقيدة - بآلاف الطرق المختلفة ، من العنف الجسدي إلى التحديق بها أو جعلها تشعر بأنها "في غير مكانها" - ليس بسبب "رأس المال" ، بل بسبب الرجال... إن اللجوء البسيط إلى التفسير من منظور "المال" أو "رأس المال" وحده لا يكفي لمعالجة هذه القضية . قد يكون التسارع الحالي مُحددًا بقوة بالقوى الاقتصادية ، لكن ليس الاقتصاد وحده هو الذي يُحدد تجربتنا للمكان والمكان . بعبارة أخرى ، وببساطة ، **هناك عوامل تُحدد كيفية تجربتنا للفضاء أكثر بكثير مما يفعله "رأس المال" .**

والأهم من ذلك ، بالطبع ، أن المثال الأخير أشار إلى أن "ضغط الزمان والمكان" لم يكن يحدث للجميع في جميع مجالات النشاط... بعبارة أخرى ، وعلى نطاق أوسع ، يحتاج ضغط الزمان والمكان إلى التمييز اجتماعيًا . هذه ليست مجرد نقطة أخلاقية أو سياسية تتعلق بعدم المساواة ، مع أن هذا سبب كافٍ لذكرها ؛ بل هي أيضًا نقطة مفاهيمية . تخيل للحظة أنك على قمر صناعي ، أبعد وأبعد من جميع الأقمار الصناعية الفعلية ؛ يمكنك رؤية "كوكب الأرض" من مسافة بعيدة ، وعلى نحو غير معتاد لشخص ذي نوايا سلمية فقط ، أنت مُجهز بنوع من التكنولوجيا التي تسمح لك برؤية ألوان عيون الناس والأرقام على لوحات سياراتهم . يمكنك رؤية كل الحركة والاستماع إلى كل الاتصالات الجارية . أبعد ما يكون عن ذلك هو الأقمار الصناعية ، ثم الطائرات ، والرحلات الطويلة بين لندن وطوكيو ، والقفزة من سان سلفادور إلى مدينة غواتيمالا .

بعض هذا هو انتقال الناس ، وبعضه تجارة مادية ، وبعضه بث إعلامي . هناك فاكسات ، وبريد إلكتروني ، وشبكات توزيع أفلام ، وتدفقات مالية ومعاملات . انظر عن كثب ، وستجد سفنًا وقطارات ، وقطارات بخارية تصعد التلال بصعوبة في مكان ما في آسيا . انظر عن كثب أيضًا ، وستجد شاحنات وسيارات وحافلات ، ثم إلى الأسفل ، في مكان ما في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، هناك امرأة - من بين العديد من النساء - تسير على الأقدام ، وما تزال تقضي ساعات يوميًا في جمع المياه .

الآن ، أريد أن أطرح نقطة بسيطة هنا ، تتعلق بما يمكن تسميته بهندسة القوة في كل هذا ؛ **هندسة قوة ضغط الزمان والمكان** . فالفئات الاجتماعية المختلفة ، والأفراد المختلفون ، يُوضعون بطرق مختلفة تمامًا فيما يتعلق بهذه التدفقات والترابطات . لا تتعلق هذه النقطة فقط بمسألة من يتحرك ومن لا يتحرك ، على الرغم من أن ذلك عنصر مهم فيها ؛ بل تتعلق أيضًا **بالقوة فيما يتعلق بالتدفقات والحركة** . للفئات الاجتماعية المختلفة علاقات مميزة بهذا التنقل المتمايز على أي حال : فبعض الناس أكثر تحكمًا فيه من غيرهم ؛ والبعض يبادر بالتدفقات والحركة ، والبعض الآخر لا ؛ والبعض الآخر أكثر تأثرًا به من غيرهم ؛ والبعض الآخر أسرى له فعليًا .

[هناك] ... أولئك الذين يقومون بالنقل والتواصل ، والذين هم ، بطريقة ما ، في موقع تحكم فيما يتعلق بذلك - أولئك الذين يسافرون كثيرًا ، والذين يرسلون ويستقبلون الفاكسات والبريد الإلكتروني ، ويعقدون المؤتمرات الهاتفية الدولية ، والذين يوزعون الأفلام ، ويتحكمون في الأخبار، وينظمون الاستثمارات والمعاملات النقدية الدولية . هذه هي المجموعات المسؤولة فعليًا ، بمعنى ما ، عن ضغط الزمان والمكان ، والذين يمكنهم حقًا استغلاله وتحويله إلى ميزة ، والذين تزداد قوتهم ونفوذهم بالتأكيد . على هامشها الأكثر

بساطة ، ربما تضم هذه المجموعة عددًا لا بأس به من الأكاديميين والصحفيين الغربيين – أولئك ، بعبارة أخرى ، الذين يكتبون أكثر عن ذلك .

ولكن ، هناك أيضًا مجموعات تقوم أيضًا بالكثير من النقل المادي ، ولكنها ليست "مسؤولة" عن العملية بالطريقة نفسها على الإطلاق . اللاجئون من السلفادور أو غواتيمالا ، والعمال المهاجرون غير النظاميين من ميتشواكان في المكسيك ، يتزاحمون في تيخوانا في محاولة هروب ربما تكون قاتلة عبر الحدود ، ساعيين وراء فرصة حياة جديدة . هنا ، تختلف تجربة التنقل ، بل وتجربة التعددية الثقافية المربكة ، اختلافًا كبيرًا . وهناك من الهند وباكستان وبنغلاديش ومنطقة البحر الكاريبي ، يقطعون نصف الكرة الأرضية ليُحتجزوا في غرفة استجواب بمطار هيثرو . أو - في حالة مختلفة - هناك من يعانون ببساطة من ضيق الزمان والمكان . المتقاعد في مأوى مؤقت في أي مدينة في قلب هذا البلد ، يتناول سمكًا وبطاطا مقلية على طريقة الطبقة العاملة البريطانية من مطعم صيني ، ويشاهد... فيلم أمريكي يُعرض على تلفزيون ياباني ؛ ولا يجرؤون على الخروج بعد حلول الظلام . وعلى أي حال ، فقد تم قطع المواصلات العامة .

أو - مثال أخير لتوضيح نوع مختلف من التعقيد - هناك سكان أحياء ريو الفقيرة ، الذين يعرفون كرة القدم العالمية معرفةً فطرية ، وأنجبوا بعض لاعبيها ؛ الذين ساهموا مساهمة كبيرة في الموسيقى العالمية ، الذين قدموا لنا السامبا وأنتجوا اللامبادا التي كان الجميع يرقصون عليها العام الماضي في نوادي باريس ولندن ؛ والذين لم يزوروا وسط مدينة ريو قط ، أو نادرًا ما زاروها . من ناحية ، كانوا مساهمين هائلين فيما نسميه "ضغط الزمان والمكان" ، ومن ناحية أخرى ، هم سجناء فيه . بعبارة أخرى ، **هذا تمايز اجتماعي شديد التعقيد . هناك اختلافات في درجة الحركة والتواصل ، ولكن أيضًا في درجة التحكم والمبادرة** .

إن الطرق التي يُوضع بها الناس ضمن "ضغط الزمان والمكان" معقدة للغاية ومتنوعة للغاية . ولكن هذا بدوره يثير تساؤلات سياسية مباشرة . إذا أمكن تصور ضغط الزمان والمكان بهذه الطريقة الأكثر تشكيلًا وتقييمًا اجتماعيًا وتمايزًا ، فقد تكون هناك إمكانية لتطوير سياسات التنقل والوصول . إذ يبدو أن التنقل ، والتحكم في التنقل ، يعكسان القوة ويعززانها . فالأمر لا يقتصر على مجرد توزيع غير متكافئ ، وأن بعض الناس يتحركون أكثر من غيرهم ، وأن بعضهم يتمتعون بقدر أكبر من السيطرة من غيرهم . **بل إن تنقل بعض الجماعات وسيطرتها يمكن أن يُضعف الآخرين بشكل فعال . فالتنقل التفاضلي يمكن أن يُضعف نفوذ الضعفاء أصلًا .**

ويمكن أن يُقوّض ضغط الزمان والمكان لبعض الجماعات قوة الآخرين . وهذا أمر راسخ ، وكثيرًا ما يُلاحَظ في العلاقة بين رأس المال والعمل . **إن قدرة رأس المال على التجوال حول العالم تُعززه أكثر في علاقته بالعمال غير القادرين على الحركة نسبيًا** ، وتُمكّنه من استغلال مصنع جينك ضد مصنع داجنهام . كما تُعزز موقفه في مواجهة الاقتصادات المحلية المتعثرة في جميع أنحاء العالم ، حيث تتنافس على ربح بعض الاستثمارات . تُعدّ طائرات 747 التي تنقل علماء الكمبيوتر عبر المحيط الهادئ جزءًا من سبب العزلة المتزايدة لجزيرة بيتكيرن اليوم . ولكن في كل مرة يستخدم فيها شخص ما سيارة ، مما يزيد من قدرته على الحركة الشخصية ، فإنه يُقلل من الأثر الاجتماعي الأساس المنطقي والجدوى المالية لنظام النقل العام – وبالتالي ، قد يُقلل من تنقل أولئك الذين يعتمدون عليه . في كل مرة تقود فيها سيارتك إلى مركز تسوق خارج المدينة ، فإنك تُساهم في ارتفاع أسعار متجر الزاوية ، بل وتُعجّل بزواله . و"ضغط الزمان والمكان" الذي ينطوي عليه إنتاج وإعادة إنتاج الحياة اليومية لميسورين في مجتمعات العالم الأول - ليس فقط سفرهم ، بل الموارد التي يعتمدون عليها ، من جميع أنحاء العالم ، لإطعام أنفسهم - قد يترتب عليه عواقب بيئية ، أو

يُواجه قيودًا ، تُقيّد حياة الآخرين قبل حياتهم . بعبارة أخرى ، علينا أن نسأل **ما إذا كانت حركتنا النسبية وسيطرتنا على التنقل والتواصل تُرسّخ الحبس المكاني للمجموعات الأخرى .**

لكن هذه الطريقة في التفكير في ضغط الزمان والمكان تُعيدنا أيضًا إلى مسألة المكان والشعور به . كيف نفكر في "الأماكن" في سياق كل هذه التغيرات الاجتماعية الزمانية والمكانية المتنوعة ؟ في عصرٍ يُقال فيه إن "المجتمعات المحلية" تبدو متفككة بشكل متزايد ، حيث يمكنك السفر إلى الخارج والعثور على المتاجر نفسها ، و الموسيقى نفسها التي تجدها في وطنك ، أو تناول طعامك المفضل من عطلات أجنبية في مطعم قريب - وحيث لكل شخص تجربة مختلفة في كل هذا - كيف نفكر إذن في "المحلية" ؟

يؤكد كثير ممن يكتبون عن انضغاط الزمان والمكان على انعدام الأمن والتأثير المقلق لآثاره ، ومشاعر الضعف التي يمكن أن يُنتجها . لذلك ، ينطلق البعض من هذا ليجادل بأنه في خضم كل هذا التدفق ، يحتاج الناس بشدة إلى قليل من السلام والهدوء - وأن الشعور القوي بالمكان ، وبالمحلية ، يمكن أن يُشكل نوعًا من الملاذ من صخب الحياة . لذا ، يُفسَّر البحث عن المعاني "الحقيقية" للأماكن ، واستخراج التراث ، وما إلى ذلك ، على أنه ، جزئيًا ، استجابة للرغبة في الثبات وأمن الهوية وسط كل هذه الحركة والتغيير . **إن "الشعور بالمكان" ، بالتجذر، يمكن أن يوفر... استقرارًا ومصدرًا لهوية لا تُثير أي إشكال** . لكن في هذا السياق ، يرفض العديد من التقدميين المكان والمحلية المكانية كونهما بالضرورة رجعيتين . ويُفسَّران على أنهما هروب ؛ تراجع عن ديناميكية "الحياة الواقعية" (التي لا مفر منها في الواقع) وتغيرها ، وهو ما يجب أن نستغله إذا أردنا تغيير الأمور نحو الأفضل . بناءً على هذه القراءة ، يُشكِّل المكان والمحلية بؤرًا لشكل من أشكال الهروب الرومانسي من واقع العالم . بينما يُساوي "الزمان" بالحركة والتقدم ، يُساوي "الفضاء "/" المكان" بالركود ورد الفعل .

هناك بعض أوجه القصور الخطيرة في هذه الحجة . هناك سؤال حول سبب افتراض أن ضغط الزمان والمكان سيؤدي إلى انعدام الأمن . هناك حاجة لمواجهة - بدلاً من مجرد إنكار - حاجة الناس إلى نوع من التعلق ، سواء من خلال المكان أو أي شيء آخر . ومع ذلك ، فمن المؤكد أن هناك في الوقت الحالي عودة لبعض معاني المكان الإشكالية للغاية ، من القوميات الرجعية ، إلى المحلية التنافسية ، إلى الهواجس الانطوائية بـ "التراث" . لذلك ، **نحن بحاجة إلى التفكير فيما قد يكون شعورًا تقدميًا كافيًا بالمكان**... السؤال هو كيف نتمسك بمفهوم الاختلاف الجغرافي ، والتفرد ، بل وحتى التجذر ، إذا أراد الناس ذلك ، دون أن يكون ذلك رجعيًا .

هناك عدد من الطرق المتميزة التي يُشكل بها مفهوم "الرجعية" للمكان الموصوف أعلاه إشكالية . أحدها فكرة أن الأماكن لها هويات واحدة وجوهرية . وفكرة أخرى هي أن هوية المكان - الشعور بالمكان - مبنية على تاريخ انطوائي ، ينظر إلى الداخل ، قائم على التنقيب في الماضي بحثًا عن أصول مُستبطنة... تكمن مشكلة هذا المفهوم للمكان في أنه يبدو أنه يتطلب رسم حدود . لطالما انشغل الجغرافيون بمشكلة تعريف المناطق ، وقد اختُصرت مسألة "التعريف" هذه دائمًا تقريبًا في مسألة رسم خطوط حول مكان ما . أتذكر أن بعضًا من أكثر أوقاتي إيلامًا كجغرافية قضيتها وأنا أحاول جاهدًا التفكير في كيفية رسم حدود حول مكان مثل "شرق ميدلاندز" . لكن هذا النوع من الحدود حول منطقة ما يُميز بدقة بين الداخل والخارج . ويمكن بسهولة أن يكون وسيلة أخرى لبناء تناقض بين "نحن" و"هم" .

ومع ذلك ، إذا نظرنا إلى أي مكان حقيقي تقريبًا ، وبالتأكيد مكان لا تُحدده في المقام الأول حدود إدارية أو سياسية ، فإن هذه الخصائص المفترضة لا تحظى بأهمية حقيقية تُذكر . خذ ، على سبيل المثال ، نزهة في طريق كيلبورن هاي رود ، مركز التسوق المحلي الذي أسكن فيه . إنه مكان عادي جدًا ، شمال غرب مركز لندن . تحت جسر السكة الحديدية ، يبيع كشك الصحف ، صحفًا من جميع مقاطعات ما يُطلق

عليه جيراني ، وكثير منهم من هناك ، اسم "الدولة الأيرلندية الحرة" . شق طريقك عبر حركة المرور شبه المتوقفة ، مائلاً الطريق من كشك بيع الصحف ، وهناك متجرٌ لطالما عرض الساري في واجهته . أربع عارضات أزياء هنديات بالحجم الطبيعي ، وكميات كبيرة من القماش . على الباب ، يُعلن إعلان عن حفل موسيقي قادم في ويمبلي أرينا : أناند ميلاند يُقدم ريكا ، على الهواء مباشرةً ، مع عامر خان ، وسلمان خان ، وجاهي تشاولا ، ورافينا تاندون .

في إعلان آخر، لنهاية الشهر، كُتب : "جميع الهندوس مدعوون بحفاوة" . في إعلان آخر لوكيل بيع الصحف ، أتحدث مع الرجل الذي يُديره ، وهو مسلمٌ مُكتئبٌ للغاية بسبب أحداث الخليج ، ويُبدي استياءه في صمتٍ لاضطراره لبيع صحيفة "ذا صن" . في السماء ، دائمًا ما تحلق طائرة واحدة على الأقل - يبدو أننا على مسار طيران متجه إلى هيثرو، وبحلول الوقت الذي تكون فيه فوق كيلبورن ، يمكنك رؤيتها بوضوح كافٍ لإبلاغ شركة الطيران والتساؤل وأنت تُكافح في التسوق من أين تأتي . في الأسفل ، سبب ازدحام حركة المرور (تأثير غريب آخر لضغط الزمان والمكان !) يعود جزئيًا إلى أن هذا أحد المداخل الرئيسية لطريق الهروب من لندن ، الطريق إلى ستابلز كورنر وبداية الطريق السريع M1 المؤدي إلى "الشمال" . هذه مجرد بداية لمخطط من انطباعات فورية ، ولكن يمكن إجراء تحليل دقيق للروابط بين كيلبورن والعالم . وهذا ينطبق على أي مكان تقريبًا .

كيلبورن مكانٌ أُكنُّ له عاطفة كبيرة ؛ لقد عشتُ هناك لسنوات عديدة . بالتأكيد لها "طابعها الخاص" . لكن من الممكن الشعور بكل هذا دون الانخراط في أيٍّ من المفاهيم الجامدة والدفاعية - وبهذا المعنى الرجعية - عن "المكان" التي أشرنا إليها آنفًا . أولًا ، مع أن كيلبورن قد يكون لها طابعها الخاص ، إلا أنها ليست هويةً متكاملةً ومتماسكةً على الإطلاق ، أو إحساسًا واحدًا بالمكان يتشاركه الجميع . بل هي كذلك تمامًا . تتنوع مسارات الناس عبر المكان ، وأماكنهم المفضلة فيه ، والروابط التي يقيمونها (جسديًا ، أو عبر الهاتف أو البريد ، أو في الذاكرة والخيال) بينه وبين بقية العالم تنوعًا هائلًا . وإذا أدركنا الآن أن للناس هوياتٍ متعددة ، فيمكننا أن نؤكد على النقطة نفسها فيما يتعلق بالأماكن . علاوةً على ذلك ، يمكن أن تكون هذه الهويات المتعددة إما مصدرًا للثراء أو مصدرًا للصراع ، أو كليهما .

إحدى المشكلات هنا هي التماهي المُستمر بين المكان و"المجتمع" . ومع ذلك ، فهذا تعريف خاطئ . فمن ناحية ، يمكن للمجتمعات أن توجد دون أن تكون في المكان نفسه - من شبكات الأصدقاء ذوي الاهتمامات المتشابهة إلى المجتمعات الدينية أو العرقية أو السياسية الكبرى . ومن ناحية أخرى ، فإن حالات الأماكن التي تضم "مجتمعات" منفردة بمعنى مجموعات اجتماعية متماسكة نادرة للغاية - وأزعم أنها كانت كذلك منذ زمن طويل . علاوة على ذلك ، حتى في حالة وجودها ، فإن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال وجود شعور واحد بالمكان . **فالناس يشغلون مواقع مختلفة داخل أي مجتمع** . يمكننا أن نقابل هذا المزيج الفوضوي في كيلبورن بالمجتمع المستقر والمتجانس نسبيًا على الجانب الآخر من الطريق من أكشاك بيع الصحف (على الأقل في الصور الشائعة) لقرية تعدين صغيرة ، متجانسة ؟ "المجتمعات" أيضًا لها هياكل داخلية . لنأخذ أوضح مثال ، فأنا متأكدة من أن إحساس المرأة بالمكان في قرية تعدين - "المساحات التي تتحرك فيها عادةً ، وأماكن اللقاء ، والروابط الخارجية" - يختلف عن إحساس الرجل . سيكون "إحساسهما بالمكان" مختلفًا .

علاوة على ذلك ، فإن "كيلبورن" لا تمتلك هويات متعددة فحسب (أو أن هويتها الكاملة مزيج معقد من كل هذه الهويات) ، بل إنها أيضًا ، عند النظر إليها بهذه الطريقة ، ليست انطوائية على الإطلاق . من المستحيل (أو ينبغي أن يكون كذلك) حتى البدء في التفكير في طريق كيلبورن السريع دون التطرق إلى نصف

العالم وجزء كبير من التاريخ الإمبريالي البريطاني (وهذا ينطبق بالتأكيد على قرى التعدين أيضًا) . إن تخيلها بهذه الطريقة يثير فيك (أو على الأقل فيّ) إحساسًا عالميًا حقيقيًا بالمكان . وأخيرًا ، بمقارنتي هذه الطريقة في النظر إلى الأماكن بالرؤية الرجعية الدفاعية ، لا أستطيع ، ولا أرغب في ذلك ، أن أبدأ بتعريف "كيلبورن" برسم حدوده المحيطة .

لذا ، في هذه المرحلة من النقاش ، عد إلى مخيلتك عبر قمر صناعي ؛ عد إلى الخارج وانظر إلى الكرة الأرضية . لكن هذه المرة ، تخيّل ليس فقط كل الحركة الجسدية ، ولا حتى كل الاتصالات التي غالبًا ما تكون غير مرئية ، بل أيضًا ، وخاصةً ، كل العلاقات الاجتماعية ، وكل الروابط بين الناس . املأها بكل تلك التجارب المختلفة لضغط الزمان والمكان . فما يحدث هو **أن جغرافية العلاقات الاجتماعية تتغير .** في كثير من الحالات ، تتمدد هذه العلاقات بشكل متزايد عبر الفضاء . العلاقات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية ، كل منها مليء بالسلطة وبهياكل داخلية من الهيمنة والتبعية ، ممتدة على الكوكب على مختلف المستويات ، من المنزل إلى المنطقة المحلية إلى العالم .

ومن هذا المنظور، يُمكن تصوّر تفسير بديل للمكان . في هذا التفسير، ما يُضفي على المكان خصوصيته ليس تاريخًا داخليًا طويلًا ، بل كونه مبنيًا على كوكبة مُحددة من العلاقات الاجتماعية ، تلتقي وتنسج معًا في مكان مُحدد . فإذا انتقل المرء من القمر الصناعي إلى العالم ، مُحتفظًا بكل شبكات العلاقات الاجتماعية والحركات والاتصالات تلك في ذهنه ، **يُمكن عندئذٍ عد كل "مكان" نقطة تقاطع مُحددة وفريدة . إنه ، في الواقع ، مكان لقاء** . بدلاً من التفكير في الأماكن كمساحات ذات حدود محيطة ، يُمكن تخيُّلها كلحظات مُتَّصلة في شبكات من العلاقات الاجتماعية والتفاهمات ، ولكن حيث تُبنى نسبة كبيرة من تلك العلاقات والتجارب والتفاهمات على نطاق أوسع بكثير مما نُعرِّفه لتلك اللحظة بالمكان نفسه ، سواءً كان شارعًا أو منطقة أو حتى قارة . وهذا بدوره يُتيح إحساسًا بالمكان منفتحًا ، يتضمن وعيًا بروابطه مع العالم الأوسع ، والذي يدمج بشكل إيجابي العالمي والمحلي .

تُسلِّط هذه الحُجج الضوء على عدد من الطرق التي يُمكن من خلالها تطوير **مفهوم تقدمي للمكان** . **أولًا** ، إنه ليس ثابتًا على الإطلاق . إذا أمكن تصوُّر الأماكن من حيث التفاعلات الاجتماعية التي تربطها ببعضها ، فإن هذه التفاعلات نفسها ليست أشياءً جامدة ، مُجمَّدة في الزمن ، إنها عمليات . لطالما كانت إحدى العبارات المقتضبة في النقاشات الماركسية : "آه ، لكن رأس المال ليس شيئًا ، إنه عملية". ربما ينبغي قول هذا أيضًا عن الأماكن ؛ فالأماكن عمليات أيضًا . **ثانيًا** ، ليس بالضرورة أن تكون للأماكن حدود ، بمعنى التقسيمات التي تُؤطّر حواجز بسيطة . قد تكون "الحدود" ضرورية بالطبع ، لأغراض أنواع معينة من الدراسات ، على سبيل المثال ، لكنها ليست ضرورية لتصور المكان نفسه . لا يشترط أن يكون التعريف بهذا المعنى من خلال مجرد معارضة للخارج ؛ بل يمكن أن يأتي ، جزئيًا ، تحديدًا ، من خلال خصوصية الارتباط بذلك "الخارج" الذي هو في حد ذاته جزء مما يُشكّل المكان . هذا يُساعد على التهرب من الارتباط الشائع بين قابلية الاختراق والضعف . فهذا النوع من الارتباط هو ما يجعل غزو الوافدين الجدد مُهددًا للغاية .

ثالثًا ، من الواضح أن الأماكن لا تمتلك "هويات" فريدة ومُفردة ؛ إنها مليئة بالصراعات الداخلية . فكّر، على سبيل المثال ، في منطقة دوكلاندز في لندن ، وهي مكان يُعرّف حاليًا بوضوح بالصراع : صراع على ماضيه (طبيعة "تراثه") ، وصراع على ما ينبغي أن يكون تطوره الحالي ، وصراع على ما يُمكن أن يكون مستقبله . **رابعًا**، وأخيرًا ، لا شيء من هذا يُنكر المكان ولا أهمية تفرده . إن خصوصية المكان تُعاد إنتاجها باستمرار، لكنها ليست خصوصية ناتجة عن تاريخ طويل مُستبطَن . هناك عدد من مصادر هذه

الخصوصية - تفرد المكان . هناك حقيقة مفادها أن العلاقات الاجتماعية الأوسع التي تُحدد فيها الأماكن متباينة جغرافيًا . فالعولمة (في الاقتصاد ، أو الثقافة ، أو أي شيء آخر) لا تعني مجرد التجانس .

بل على العكس ، تُعدّ عولمة العلاقات الاجتماعية مصدرًا آخر لتفاوت التنمية الجغرافية ، وبالتالي لفرادة المكان . وهناك خصوصية المكان التي تنبع من كون كل مكان محورًا لمزيج مميز من العلاقات الاجتماعية الأوسع والأكثر محلية . وهناك حقيقة مفادها أن هذا المزيج نفسه في مكان واحد قد يُنتج آثارًا ما كانت لتحدث لولا ذلك . وأخيرًا ، **تتفاعل كل هذه العلاقات مع التاريخ المتراكم للمكان ، وتكتسب منه عنصرًا إضافيًا من الخصوصية ، حيث يُتصور هذا التاريخ نفسه على أنه نتاج طبقات متلاحقة من مجموعات مختلفة من الروابط ، المحلية منها والعالمية** .

في كتابها "كورسيكا ، جزيرة الجرانيت" ، تجوب دوروثي كارينغتون الجزيرة باحثةً عن جذور طابعها . تستكشف جميع طبقات الشعوب والثقافات المختلفة ؛ بدءًا من العلاقة الطويلة والمضطربة مع فرنسا ، وجنوة وأراغون في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، مرورًا بالاندماج المبكر في الإمبراطورية البيزنطية ، وقبل ذلك هيمنة الوندال ، وقبل ذلك الانضمام إلى الإمبراطورية الرومانية ، وقبل ذلك الاستعمار والاستيطان من قبل القرطاجيين واليونانيين... حتى تكتشف... أن حتى بناة الميغاليث قد قدموا إلى كورسيكا من مكان آخر . إنه شعور بالمكان ، وفهم "لطابعه" ، لا يمكن بناؤه إلا بربط ذلك المكان بأماكن أبعد منه . إن الشعور التقدمي بالمكان من شأنه أن يُدرك ذلك ، دون أن يُهدده . **ما نحتاجه ، على ما يبدو لي ، هو إحساس عالمي بالمحلية ، وإحساس عالمي بالمكان .**